من ايام اسماعيل العظيم

ضباط اميركيون
في الجيش المصري

للميرباشي عبد الرحمن زكي

كتب القاضي الاميركي بيير كرابيتس أثناء الاعوام الاخيرة سلسلة من المؤلفات التي تبحث في التاريخ المصري خلال القرن الماضي ، نذكر من بينها « البطل ابراهيم » و « جوردون والسودان والرقيق » و « الخديو اسماعيل المفترى عليه » و « استرداد السودان »

وأخيراً أخرج كتاباً عنوانه «ضباط أميركيون في الجيش المصري»[1] يروى فيه قصة ضباط البعثة العسكرية الاميركية التي استدعاها المغفور لهُ الخديو اسماعيل عام ١٨٦٩ لتنظيم الجيش المصري ولتدريب هيئة اركان حربه بوجهٍ خاص [2]

واليوم الذي نشرقبه القاضي كرابيتس كتابه الذي نحن بصدده ، كانت معلوماتنا عن أعمال البعثة العسكرية المذكورة مبعثرة بين أوراق المحفوظات الرسمية ومجلدات نشرة الجمعية الجغرافية الملكية وأعداد جريدة اركان حرب الجيش المصري التي كانت تصدر في عصر المغفور لهُ الخديو اسماعيل ، او في المؤلفات التي كتبها بعض أفراد البعثة المذكورة كالضابط داي (Dye) [3] وزميله لورنج [4]

ومنذ أعوام نشط القاضي كرابيتس للبحث في المحفوظات التاريخية بمصر عابدين ومحفوظات وزارة الحربية والمفوضية الاميركية بمصر ، فكشف لنا الستار عما كان لا يزال مجهولاً من أعمال البعثة الاميركية . ولنظم أخبارها . وسرد ما خفي من أعمالها الفنية التي امتدت من البحر

(١) Pierre Crabites — Americans in the Egyptian Army. George Routledge London وعدد صفحاته ٢٧٧

(٢) راجع أعداد نفتطف يوليو ١٩٣٧ مقال « صفحة من تاريخ الجيش المصري » . وعدد ابريل ومايو ١٩٣٨ مقال « الجيش المصري والاستكشاف في افريقية » . للملازم الاول عبد الرحمن زكي

(٣) Col. William Mee Dye - Moslem Egypt and Christian Egypt

(٤) Gen. Loring—A Confederate Soldier in Egypt

المتوسط الى منابع النيل. وليس هناك أدنى شك في ان القاضي كرابيتس قد ألف كتابه وهو مغتبط بما كتبهُ عن مواطنيه الاميركيين على انهُ لم يسرد بايضاح ذلك الاثر العظيم الذي اشترك فيه هؤلاء مع زملائهم من الضباط المصريين، وقد تكاتفوا جميعاً على العمل الرائع كما سنرى

كنا نعلم الى عهد قريب ان أول ضابط أميركي طلب اليه الخدمة في الجيش المصري أثناء حكم اسماعيل العظيم هو الماجور جنرال موط Thaddeus P. Mott، الى ان قرأنا في صدر الفصل الثاني من كتاب القاضي كرابيتس أن منصب قيادة الجيش المصري عرض في بادىء الامر على الجنرال الاميركي جوستاف بورجارد Gustave Beauregard وقد عثر القاضي في أوراق المحفوظات التاريخية الملكية على خطاب كتبهُ الجنرال المذكور بالفرنسية الى موظف مصري كبير أوضح فيه رغبته في الحضور الى مصر لكي يشغل المنصب الذي عرض عليه. وقد بين استعداده ليجعل الجيش المصري قوة دفاعية يتحدى بها اي جيش اوربي لدولة ثانوية (الدرجة الثانية) وان يجعل موانىء القطر المصري في حالة منيعة لتقاوم بنجاح تام كل الهجمات التي تقوم بها ضدها اقوى الاساطيل العالمية (١)

لكننا لا نعلم ما تمَّ عليه الامر مع هذا القائد. لاننا نقرأ فيما بعد عن وصول الماجور جنرال موط الى القاهرة وصدور مرسوم بالانعام عليه برتبة الفريق في ٢٤ سبتمبر ١٨٦٩ وبمنحه مرتب مبلغهُ مائة جنيه في الشهر. ولم يلبث الجنرال موط طويلاً حتى غادر مصر الى الولايات المتحدة للبحث عن نخبة من الضباط الاميركيين يضطلعون معهُ بالمهمة التي كلف القيام بها. ومن حسن الحظ ان كانت الحرب الاهلية الاميركية قد انتهت فسهلت المهمة أمامهُ. واختار من أراد من الضباط، ومن رشحهم الحكومة الاميركية

وقبل قدوم هؤلاء الضباط الى مصر وقعوا عقوداً مع الحكومة المصرية التي كان يمثلها «موط». وجاء في الشروط ان يشهروا الحرب على عدو الفريق الاول (مصر)، كائناً من كان وان يواصلوا تلك الحرب بكل شدة، على ان يعفوا من حمل السلاح في وجه الولايات المتحدة

كان في مقدمة الذين رشحهم الجنرال شيرمان Sherman القائد المشهور الاميركي، ضابط ممتاز هو البريجادير جنرال ستون Charles Pomery Stone. ومن زملائه في الجنرالية ثلاثة ضباط كبار وهم: البريجادير جنرال ويليام لورنج William Loring من فلوريدا — والبريجادير جنرال سيبلي Henry Sibley — والبريجادير جنرال كارول تفيس Carrol Tevis

(١) المحفوظات التاريخية الملكية بقصر عابدين وقد ورد في هذا التقرير ما يلي:

"comme officier de Génie je pourrais mettre tous les forts de Son Altesse en condition de combattre avec succès les attaques des flottes les plus puissantes du monde etc...„

ولنقف هنا لحظة لكي نعرف كيف انتهى الامر بالجنرال موط . فقد كان أقدم الضباط الاميركيين في خدمة الحكومة المصرية . لكنهُ كان يتحاشى الاندماج مع زملائه لانهُ لم يكن من هيئة اركان الحرب . فضلاً عن انهُ لم يكن « ضابط ميدان » . وقد اطلع القاضي كرابيتس على عدة خطابات كتبها موط الى بعض اصدقائه يشتم منها عدم توفيقه مع زملائه . فضلّل اخيراً الاستقالة بعد وصول افراد البعثة بأشهر قلائل . وقد أهدى اليه الخديو اسماعيل قطعتين نفيستين من الماس . أهداهما الجنرال فيما بعد الى شقيقته « المس إيزاك بل »

وكان عدد الضباط الذين برتبة كولونيل عشرين وهم :

شايه لوتج — ووليام مالك داي — وسبارو بوردي — وهـ. براوت — وهـ . ريد — وروبرت روجرز — وفندربلت آلين — والمهندس العسكري كولستون — ودريك — وشارلزفيلد — وا. جنيفر — ويفرلي كينون — وصموئيل لوكيت — والكسندر ماسون الكسندر — ورينلدز وريت — وجون سافدج — وهـ . وارد — والكولونيل ماكيفور

وكان عدد الضباط من رتبة الليفتنت كولونيل ثلاثة وهم : جيمس باسيل — وجريفز — ودنلوب

وكان المأجورات كامبل وهنت وهول وهوايت وجيمس مورجان ودنيسون وشارلز لوش وروبرت شوفر لامسون والماجور باركيز . وكان بين افراد البعثة أربعة ضباط برتبة كابتن وهم : ابرجين ، وامكس بورتر ، وفريمان ، وكوبنجر

وهناك أيضاً ثلاثة من الجراحين : جولسون وويلسون وواترين . كما ألحق المهندس ليفز ميتشيل للعمل في الابحاث العلمية الخاصة بهيئة اركان الحرب برتبة معادل ليفتنت كولونيل . وانتخب ايضاً بعض المرظفين للقيام بالاعمال العلمية والفنية . وهؤلاء هم برنارد (السكرتير الخاص للجنرال ستون) وميدلتون وكيللي . وقد بلغ عدد أفراد البعثة الاميركية ثمانية وأربعين أوصى باتخاب عشرين منهم الجنرال موط

وفي الفصل الرابع سرد القاضي كرابيتس الظروف التي وصلت فيها النخبة الأولى من رجال البعثة . فقد وصل هؤلاء في خامس ابريل عام ١٨٧٠ على السفينة التي أقلت اللورد نابيير الى الهند لتسلم قيادة الجيوش البريطانية فيها

وكان الجنرال موط في انتظار مواطنيه الجدد على الميناء . ثم صحبهم الى «اوتيل دوريان» Hotel d'Orient حيث اقاموا فيها . وفي اليوم التالي قدّمهم الى شاهين باشا ناظر الحربية فدعاهم الى مرافقته في عربته الخصوصة الى القاهرة . فلما وصلوا الى العاصمة وقضت بضعة أيام استقبلهم الخديو اسماعيل في ١٥ ابريل ١٨٧٠ . وقد قدمهم الى سموه ذو الفقار باشا كبير الامناء وكان يحمل صدره بمجموعة نفيسة من النياشين والميداليات [1]

(١) والد صاحب المعالي سعيد ذو الفقار باشا كبير الامناء الحالي لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

وقد وصف المؤلف كيف أدخلوا قاعة الاستقبالات العظيمة وكيف قابلهم بطل مصر اذ ذاك فحيّاهم تحية طيبة بدون ان يتكلم . وجبوا التحية العسكرية ثم امرهم بالجلوس على كنبة وظلّ الصمت سائداً لحظة الى ان نظر الخديو نحوهم ثم تكلم باللغة الفرنسية قائلاً : —

"اني وبلادي ارحب بكم أيها السادة . وأود ان اعبر لكم عن اغتباطي لإجابتكم السريعة لدعوتي . وقد استطيع ان اقول لكم وبثقة كاملة انه من المنتظر ان تدعوا للخدمة في الميدان بأسرع مايمكن . وان تجاربكم في الحرب الاميركية الاخيرة ، وعدم وجود مصالح خاصة لدولكم في مصر هما اللذان اوحيا اليّ ان استدعيكم لتلك الخدمة . وسيحسدكم بعض الضباط المصريين على الحالة التي ستجدون انفسكم فيها . لذلك اسألكم ان تتحملوا هذه المظاهر بالصبر والتسامح . فاذا وصل الأمر ولم تتحملوا فلا تترددوا في الحضور الي لانصافكم . واني اعتمد على حبكم واخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان لتعيني على تحقيق استقلال مصر . ومتى تم ذلك وسيتم باذن الله فسأكافئكم اعظم مكافأة"(٢)

لكنهم لم يتلوا سيوفهم لمحاربة السلطان تحقيقاً لمطامع الخديو . لان اوربا ارادت ذلك على نحو ما وقفت امام محمد علي . . . وكانت فرنسا وانجلترا يقظتين لجميع مشروعات اسماعيل

ولعلّ اهم يوم في تاريخ خدمة الضباط الاميركيين في الجيش المصري هو يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ ففي ذلك اليوم عين الجنرال ستون رئيساً لاركان حرب الجيش المصري . وكان هذا التعيين نذيراً بانتهاء السيادة الفرنسية في الجيش بعد ان كانت هيئة اركان حربه معظمها ان لم يكن كلها في ايدي الضباط الفرنسيين

فأنا نعلم جيداً ان عقب حرب القرم (١٨٥٣—١٨٥٥) وبوفاة الجنرال سليمان باشا الفرنساوي رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري في أيام محمد علي الكبير والبطل ابراهيم وعباس الاول وسعيد باشا ، اندثرت هذه الهيئة الى ان حاول اسماعيل بعثها

بدأ الجنرال ستون عمله في ربيع عام ١٨٧٠ . وقصد نظارة الحربية ليدرس ويكتب تقاريره فقسّم هيئة اركان الحرب الى سبعة أقسام أو ادارات لكل منها رئيس أميركي . وأوصى بانشاء مدرسة لاركان الحرب . ففتحت أبوابها وانتخب لها عشرون طالباً من نابهي طلبة المدارس العالية وكان لتلك المدرسة الفضل الاول في اخراج طائفة مختارة من شبان الضباط المتعلمين بين الاعوام ١٨٧٣ و١٨٧٨ . فوزعهم على الاقسام العسكرية لهيئة اركان الحرب والاسلحة المختلفة

[للبحث تتمة]

(٢) راجع كتاب شايه لوثج . ج ١ ص ٣٢ وعنوانه « حياتي في القارات الاربع »